تتابع الاستيطان غربي العراق وأعالي الفرات عبر العصور القديمة

أ. د. محمد طه محمد الأعظمي
الجامعة العراقية كلية الآداب

اكتسبت الرقعة الجغرافية غرب بلاد الرافدين والممتدة من مدينة الفلوجة الحالية وصولاً إلى الحدود العراقية السورية تقريباً، اكتسبت أهمية خاصة في تاريخ وحضارة العراق القديم، حيث كانت تتميز عن غيرها من مناطق بلاد الرافدين بسمات جغرافية وبشريه وحضارية خاصة. لذلك فأن أغلب الباحثين في التاريخ والاثار يتناولون دراسة المنطقة كوحدة جغرافية وحضارية واحدة لها خصائصها التي تميزها عن غيرها من المناطق ، إضافة إلى ما تملكه من مقومات حضارية مشتركة مع باقي أقسام بلاد الرافدين.

ففي الجانب الحضاري كانت منطقة غربي العراق حلقة وصل مهمة جداً بين حضارات وادي الرافدين التي سادت في عصورها السومرية والاكدية والبابلية والآشورية وبين ممالك بلاد الشام وحضارات البحر المتوسط غرباً، وصولاً إلى وادي النيل، فأقتبست من كليهما واضافت لها ما كان سائداً من ثقافات محلية خاصة، مما جعلها تتبوء مكاناً متميزاً في مسيرة التاريخ العراقي عبر عصوره المختلفة.

أما في الجانب البيئي فيمكن القول أن بيئة أعالي الفرات وطبيعتها الجغرافية كان لها أثر فعال في المسيرة التاريخية والحضارية للمستوطنين هناك تشهد على صواب الرأي الذي كثيراً ما نردده من أن الجغرافية تصنع التاريخ، وقبل الخوض في تفاصيل الحديث عن بيئة غربي العراق لابد أن نذكر أن حوض نهر الفرات قد اطلقت عليه تسميات عالمية ابتداء من منبعه وإلى مصبه، حيث أطلق على القسم الواقع في تركيا من منبعه وإلى الحدود السورية تسمية الفرات الأعلى، بينما اطلق على القسم الواقع في سوريا وإلى جنوب عانه تقريباً تسمية الفرات الأوسط، وأطلق على بقية أقسامه اسم الفرات الأسفل. أما في العراق فقد قسمت المناطق التي يمر بها نهر الفرات إلى ثلاثة

أقسام أطلق على القسم الشمالي منها اسم الفرات الأعلى ابتداء من الحدود العراقية السورية وصولاً إلى وسط العراق تقريباً وأطلقت تسمية الفرات الأوسط على القسم الذي يمر بمحافظات بابل وكربلاء والنجف والديوانية والسماوة بينما سمي القسم الباقي من النهر وإلى مصبه باسم الفرات الأسفل.

وما يهمنا من بحثنا هذا هو منطقة الفرات الأوسط حسب التقسيم العالمي، أو ما يطلق عليه في العراق تسمية الفرات الأعلى الممتد شمال غربي العراق في محافظة الأنبار حالياً جنوب مدينة الرمادي وصولاً إلى الحدود العراقية السورية. يتميز نهر الفرات في هذا القسم بعمق واديه الذي يشقه في أرض صخرية كلسية تؤلف الجزء الشرقي من الهضبة المعروفة باسم الهضبة الغربية، يحيط بمعظم أقسامه مرتفعات صخرية جرداء. كما يتميز مجرى النهر بكثرة تعرجاته والتواءاته وبوجود عدد من الجزر الكبيرة التي تتوسط مجراه، لذلك فأن أهم ما يميز طبيعة المنطقة الجغرافية هي أن مساحة الأراضي الصالحة لأقامة مستوطنات سكنية على ضفتي النهر كانت محدودة وفي نطاق ضيق بسبب إحاطتها بمرتفعات صخرية عدا بعض المناطق السهلية الصغيرة المبثوثة هنا وهناك.

كذلك لابد أن نتطرق إلى ظاهرة بيئية مهمة في المنطقة إلا وهي قلة كميات الإمطار السنوية الساقطة على المنطقة مما لا تسمح بقيام زراعة دائمية فيها تعتمد على المطر فقط، وبخاصة زراعة الحبوب على اختلاف أنواعها، لذلك فأنه من المنطقي القول أن المزارعين قد اعتمدوا منذ القدم على الري الاصطناعي لإدامة حياتهم. لذلك لابد وأن مساحات الأراضي التي كانت تزرع تبعاً لذلك صغيرة نسبياً تتلاءم وطبيعة وسائط الري وأدواته البدائية آنذاك[١].

فلا غرابة أذن أن نجد أن المستوطنات السكنية في منطقة أعالي الفرات كانت بمساحات صغيرة نسبياً وبمخططات ذات امتدادات شريطية ضيقة، تقطن فيها تبعاً لذلك مجاميع بشرية محدودة، يمتهنون حرفاً متعددة لا تقل أهمية عن الزراعة ومنها بشكل خاص التجارة مثلاً.

أن محدودية مساحة الأراضي الصالحة لإقامة مستوطنات سكنية زراعية، مع ما ذكرنا من سمات بيئية وطبيعية، جعلت من مناطق غربي العراق منطقة طرد بشري أكثر من كونها مناطق جذب واستقطاب مثل السهل الرسوبي، وكانت كما نعتقد السبب المباشر لخروج موجات من الهجرات البشرية فردية كانت أم جماعية باتجاه السهول الفيضية حيث المدن والقرى الواسعة التي تستقبل المهاجرين على الدوام أن كانوا مزارعين أو حرفيين. وتبعاً لذلك فلم تشيد أو تظهر في مناطق أعالي الفرات مدن كبيرة ذات كثافات سكانية عالية كان لها وقع سياسي مؤثر ومتميز في مجمل التاريخ العراقي القديم.

وعند الحديث عن تاريخ الاستيطان غربي العراق لابد أن نشير ولو بشكل مختصر إلى أن أقدم أشكال المستوطنات البشرية في بدايات العصر الحجري الحديث أي بحدود الالف السابع ق.م كانت في المناطق الشمالية من العراق عند محافظات السليمانية وأربيل ودهوك ونينوى، والسبب الرئيسي في ذلك يعود إلى البيئة المثالية لتلك المنطقة حيث تتوفر فيها النباتات الطبيعية وأنواع الحيوانات البرية والأراضي الخصبة، أضف إلى ذلك أن كمية الأمطار الساقطة تساعد على قيام زراعة لأنواع من الحنطة والشعير والتي كانت أصولها البرية تنمو بكثرة في المنطقة.

وفي نهايات الألف السابع وبداية الالف السادس ق.م ازداد عدد المستوطنات الزراعية وتوسعت مساحاتها واخذت بالانتشار جنوب المناطق الجبلية لتصل إلى مناطق شمال سامراء وإلى غرب وشمال غربي العراق وكان ذلك في نهايات مرحلة ((ثورة العصر الحجري الحديث)) والتي اصطلح عليها في تاريخ العراق القديم باسم عصر ما قبل حسونه Proto – Hassuna[٢].

ونظراً لكثرة المظاهر الحضارية الجديدة وتنوعها وتعدد أشكالها من مبان عامة ومبان سكنية وأنواع مختلفة من المصنوعات الفخارية والحجرية فأن الباحثين في تلك المرحلة من تاريخ العراق قدموا لنا رأيين مختلفين حول أصل وتطور تلك الحضارة أولاهما يعتقد أن سببها يعود إلى هجرة بشرية لأقوام جدد قدموا من مناطق شمالي بلاد الشام واستوطنوا شمال وشمال غرب العراق.

أما الرأي الآخر فيعتقد أصحابه بأن التطور الحضاري لمواقع وقرى شمال غرب العراق ليس له علاقة بأي هجرة خارجية وإنما كان تطوره طبيعياً محلياً أملته الظروف البيئة الجديدة وتحسن وسائل الإنتاج وأدواته عبر مئات السنين(٣).

ومهما يكن من أمر تلك الآراء التي تحاول عن قصد أو غير قصد فصل بلاد الرافدين عن محيطة الأقليمي وتحاول أن تدرس المظاهر الحضارية في منطقة ما على وفق الحدود السياسية الحالية، فإن المنهج العلمي الرصين يحتم علينا أن نتناول دراسة المظاهر الحضارية التي انتشرت وسط وشمالي العراق وامتدت شمالي بلاد الشام كوحدة جغرافية واحدة، ليس بينها حواجز طبيعية وذات خصائص بيئية متقاربة مع إمكانية وسهولة الانتقال والترحال من منطقة إلى أخرى، مما ساهم في ظهور وانتشار مظاهر حضارية متشابهة بينهما.

وفي مناطق شمال غرب العراق فإن التنقيبات والمسوحات الاثرية كشفت عن ما يقارب من ٧٨ موقعاً أثرياً يرجع ٤٠ موقعاً منها إلى عصور ما قبل التاريخ وإلى بدايات العصر الحجري الحديث يقع معظمها على الجانب الشرقي لوادي الثرثار مقابل مدينة الحضر بالإضافة إلى عدد كبير من المواقع والمستوطنات السكنية التي انتشرت في البادية الغربية جنوبي مناطق تلعفر وسنجار وصولاً إلى شمالي سوريا(٤).

أما تاريخ الاستيطان حوالي حوض نهر الفرات غرب العراق فإن الدلائل الآثارية توضح أن المنطقة أخذت أهميتها عند الألف الثالث ق.م وبشكل خاص في عصر فجر السلالات ، حيث عثر على بعض من تلك المستوطنات مثل موقع تل جوخة في قضاء الفلوجة . على بعد ٩كم غرب مركز مدينة الفلوجة . وهو موقع كبير بمساحة تقرب من ١٩٥ × ١٦٥م . يبدأ الاستيطان فيه منذ عصر فجر السلالات وصولاً إلى العصور الإسلامية المبكرة(٥). يليه شمالاً موقع تل اسود، شمال غرب الرمادي بنحوه ٢٥كم، والذي عثر فيه على بقايا حارات سكنية يتوسطها معبد كبير يشير إلى أهمية المستوطن في المنطقة(٦).

ومن المواقع المهمة الأخرى التي يرجع تاريخ الاستيطان فيها إلى عصر فجر السلالات والتي توسعت وازدهرت بعد ذلك في العصر الاكدي هي مدينة هيت. ومن أقدم النصوص المسمارية التي ورد فيها ذكر المدينة نص يعود للملك سرجون الاكدي (٢٣٧١ – ٢٣١٦ ق.م) الذي دون أخبار حملته على بلاد الشام وفي طريقه فرض سيطرته على المدينة التي يبدو أنها كانت من المراكز الدينية المهمة غربي الفرات أضف إلى ذلك كونها محطة استراحة وحلقة وصل بين مناطق جنوب ووسط بلاد الرافدين وبين مناطق أعالي الفرات في بلاد الشام.

وفي ذلك النص يرد اسم المدينة بصيغة (تول تول) أو (توتل)[٧].

Tuttul, Tu–ul–tu–ul, Tu–ul–tu–u^{Ki}

ويذكر سرجون أنه صنع لنفسه تمثالاً وقدمه أمام الإله داكان[٨].

كذلك نجد نصاً آخر يعود للملك نرام سين (٢٢٩١–٢٢٥٥ ق.م) يذكر فيه فرض سيطرته على مدن أعالي الفرات وبلاد الشام ومنها مدينة هيت (توتول) وإلهها داكان.

ويفهم من هذه النصوص أن لمدينة هيت أهمية دينية كبيرة لدى الاكديين وفيها كان المعبد الرئيسي لأحد الهتهم القومية المسمى داكان، والذي انتشرت عبادته بين الأقوام الجزرية في أعالي الفرات وبلاد الشام على وجه الخصوص، وهذا يشير إلى أن مدينة هيت كانت معروفة منذ فترات سبقت العصر الاكدي أي عصر فجر السلالات وربما أقدم من ذلك بكثير.

وإذا ما أتجهنا شمالاً نصادف موقعاً آخر مهماً يعود إلى عصر فجر السلالات هو موقع تل العوسية على بعد ٣٢كم تقريباً شمال غرب مدينة حديثة على الشاطئ الغربي لنهر الفرات، وهو موقع كبير يشرف على نهر الفرات عند استدارته في هذه المنطقة، وقد اكسبه موقعه المتميز هذا أهمية استثنائية في المنطقة[٩].

وعند الضفة الشرقية قبالة موقع العوسية تقريباً ، يمتد مستوطن آخر يرجع بزمنه إلى عصر فجر السلالات أيضاً هو موقع طعس الكفار قرب قرية السواري الحالية وهو موقع كبير يتألف من ثلاثة تلول واسعة(١٠). وربما كانت مدينة عنه هي ابعد مستوطن يرجع الاستيطان فيه إلى عصر فجر السلالات يقع داخل الاراضي العراقية الحالية، علماً أن هناك مدينة مهمة تقع شمال عنه بحوالي ٢٠٠كم، هي مدينة ماري قرب البوكمال في سوريا، كانت تعد واحدة من المدن الرئيسة على نهر الفرات ترجع بزمنها إلى عصر فجر السلالات.

أن وجود هذا العدد القليل من المستوطنات يشير بلا أدنى شك إلى محدودية الاستيطان في مناطق غربي العراق في تلك الفترة، وأن الاستيطان المكثف كان في مناطق أخرى عند أعالي نهر الفرات في بلاد الشام، ونعتقد أن السبب الرئيسي وراء ذلك هو صعوبة استغلال نهر الفرات في الزراعة وطبيعة وادي النهر الصخرية والمتعرجة كما ذكرنا ذلك سابقاً.

أما في العصر البابلي القديم فقد توسع الاستيطان على ضفتي نهر الفرات وانتشرت المواقع والقرى على طول مجرى النهر تقريباً، بشكل لم يسبق له مثيل. ويبدو لنا أن تطوراً رئيسياً كبيراً شمل وسائل الانتاج وبشكل خاص القطاع الزراعي، ففي هذه المنطقة كانت العقبة الرئيسة التي واجهت المزارعين هي في كيفية رفع المياه من مجرى النهر المتميز بعمقه وسرعة جريانه. وأغلب الظن فأن الموجات البشرية الجديدة التي نزحت إلى المنطقة واستوطنت فيها، وهم من الأموريين – كما سنفصل ذلك لاحقاً – والذين قدموا من مناطق أعالي الفرات في بلاد الشام، قد جلبوا معهم أفكاراً جديدة ووسائط مبتكرة للتغلب على مشكلة رفع المياه من نهر الفرات، وذلك باستخدام دولاب خشبي دوار يرفع الماء بفعل قوة جريان النهر، والذي يعرف حالياً باسم الناعور، وعلى الاغلب فأن هؤلاء الأقوام قد عرفوا استخدام هذه الواسطة قبل مجيئهم إلى بلاد الرافدين وأنهم قد ابتكروه واستخدموه في مناطق سكناهم عند أعالي الفرات في بلاد الشام لفترة طويلة من الزمن، لذا لم يكن من الصعب عليهم بعد ذلك الهجرة والاستيطان على ضفاف نهر الفرات في بلاد الرافدين

مستخدمين هذه الألة المبتكرة في سقي مزارعهم وحقولهم، وكانت تلك فاتحة عهد جديد من الاستيطان المكثف عند أعالي الفرات منذ ذلك التاريخ وصولاً إلى العصور الحديثة.

ومما يؤيد رأينا بخوض الاصل الرافديني القديم للناعور، أن اسمه مقارب في اللفظ من الفعل الاكدي na'û (نائو، ناعو) بمعنى ينوح، يصيح، يصرخ(١١). والفعل الاخر nā'eru أو na'āru (نعيرو– نائيرو، نأرو – نعارو) بمعنى بزءر، يزمجر، يهدر(١٢). وقد اشتقت من هذا الفعل مسميات بهيئة nāru، nâru، na'ru (نارو، نعرو، نعر) بمعنى موسيقى أو مغني(١٣).

ويبدو أن إطلاق تسمية الناعور على هذه الآله قد جاء بسبب الصوت الذي يولده دوران الدولاب الخشبي الكبير والذي يشبه صوت الهدير أو الصراخ والانين بنغمات متتالية رتيبة كانها معزوفة موسيقية تقطع سكون الليل بالحان حزينة تثير الشجون. وتجدر الإشارة إلى أن الكلمة الاكدية (نارو، نعارو، نعر) تقرب في لفظها ومعناها من الكلمة العربية (نعر) بمعنى صاح وصوّت والنعير الصراخ والصياح(١٤).

كذلك مما يؤيد رأينا هذا، أن البناء الحجري الملحق بدولاب الناعور والمشيد بجانبه، والذي هو عبارة عن سد أو حاجز حجري واطئ مبني بالحجارة والنورة، يستخدم لحجز مياه النهر ويوجهها نحو الناعور، من أجل زيادة قوة جريان الماء فيتمكن من تدوير الدولاب، فأن هذا الحاجز أو السد الحجري يطلق عليه حالياً اسم السكر او السجر، وهذه الكلمة نعتقد أنها مشتقة في لفظها ومعناها من الكلمة الاكدية sikru (سكرُ) بمعنى سد، حاجز، مغلاق(١٥)، وهي من الفعل الاكدي sekēru أو sakāru بمعنى يغلق، يطمر أو يسد مجرى مائي(١٦). وتجدر الإشارة أن هذا الفعل الاكدي يقرب في لفظه ومعناه من الفعل العربي (سكر) وهو سد النهر أو ما سد به النهر والمسناة. جمعها سكور، وسكرت الريح أي سكنت. وسكرت الأبصار أي حبست عن النظر(١٧).

ويبدو لنا ان استخدام وسائط الري الجديدة هذه قد ساهم في توسيع رقعة الأراضي الزراعية مما وفر فرصة انتاج كميات كبيرة من الحبوب والمنتجات الزراعية الاخرى، ومن المعلوم أن انتاج

كميات كبيرة فائضة عن الحاجة تشجع على استخدامها كسلع أساسية في عقد صفقات البيع والشراء وفي عمليات التبادل التجاري.

كذلك فان الانتاج الواسع والفائض عن الحاجة كان خير ضمان للمستوطنين ضد المجاعات وأزمات القحط، فضلاً عن إمكانية استغلاله لإعالة كثيراً من المستوطنين لم يكونوا من منتجي الغذاء والذين وجهوا طاقاتهم ومواهبهم في امتهان حرف وفعاليات أخرى تخدم مصالح سكان القرية(١٨).

أن توسع الزراعة وتعدد مراكز الاستيطان وانتشارها على ضفتي نهر الفرات ساهم كما نعتقد في تشكيل طريق تجاري جديد يمر باتجاه غربي بلاد الرافدين ويصل إلى مناطق بلاد الشام ومن هناك يتفرع باتجاهات مختلفة ليصل إلى سواحل البحر المتوسط أو جنوب بلاد الشام ليصل في نهاية المطاف بعيداً إلى وادي النيل.

ومما تجدر الإشارة إليه أن طريق المواصلات الرئيسي بين بلاد الرافدين وبلاد الشام كان قبل هذا التاريخ يمر مع نهر دجلة وليس مع نهر الفرات، حيث كانت طرق المواصلات القادمة من وسط وجنوب البلاد تتجمع عند مدينة نينوى على نهر دجلة في الشمال حيث يخرج منها طريق يمر عبر شمالي بلاد الشام عند أعالي الخابور والبليخ وصولاً إلى كركميش (جرابلس)، ومن هناك تتفرع باتجاهات مختلفة. أما الطريق الآخر فيخرج من نينوى ثم يتجه إلى الشمال الغربي نحو سنجار ثم الخابور فالبليخ ليصل إلى مناطق قرب الرقة ومن هناك يتفرع الطريق متجهاً نحو الشمال الغربي وإلى سواحل البحر المتوسط أو يتجه جنوباً نحو الفرات ومنه إلى الصحراء السورية(١٩).

لقد اضحت منطقة غربي بلاد الرافدين منذ بدايات العصر البابلي القديم الشريان الحيوي الذي يربط مختلف مناطق بلاد الرافدين مع غيرها من الممالك والمراكز الحضرية وأصبحت صلة وصل لتبادل مختلف أنواع البضائع التجارية بالإضافة إلى كونها طريق عبور الهجرات البشرية

والحملات العسكرية مع ما ينقل معها من عادات وقيم وتقاليد ومظاهر حضارية متنوعة بين مراكز الحضارات المتقدمة في بلاد الرافدين وبلاد الشام وجنوب الاناضول. وفي تلك المرحلة من تاريخ بلاد الرافدين أي في بدايات العصر البابلي القديم في الالف الثاني ق.م، أخذت موجات بشرية بالتوافد بكثرة على المنطقة قدمت من أعالي الفرات في بلاد الشام بشكل هجرات سلمية، وقاموا ببناء العديد من القرى وتأسيس المستوطنات الجديدة في المنطقة(٢٠).

وقد كانت بدايات دخول أولئك الأقوام بداية متواضعة محدودة ترجع بزمنها إلى عصر سلالة أور الثالثة في نهايات الالف الثالثة ق.م. وقد اطلقت النصوص المسمارية على أولئك الأقوام تسمية أقوام السوخو أو سوخي وأطلقت على بلادهم تسمية بلاد سوخي mat su-ḫi(٢١).

وهؤلاء الاقوام من أصول جزرية (قبائل سامية أو عربية قديمة)، كانوا على الاغلب من أحد فروع القبائل الامورية التي كانت تجوب منطقة بلاد الشام وبخاصة قرب جبل بشري . ومن المعروف ان كثيراً من تلك القبائل والمشيخات الامورية هاجرت إلى بلاد الرافدين وأسست العديد من الممالك في بدايات العصر البابلي القديم وإليهم يرجع الملك الشهير حمورابي سادس ملوك سلالة بابل الأولى(٢٢).

وفي أعالي الفرات امتدت بلاد سوخي لتصل إلى مدينة ماري تقريباً قرب البوكمال الحالية، ونعرف من النصوص المسمارية أن بلاد سوخي كانت تقسم إلى قسمين أولاهما سوخي السفلى التي تمتد من جنوب مدينة هيت وإلى مدينة حديثة تقريباً، والقسم الثاني سوخي العليا التي تمتد من شمالي حديثة تقريباً لتشمل مدينة عانة وصولاً إلى الكرابلة قرب القائم(٢٣). وكان لهذه البلاد حاكم تابع إلى مملكة ماري التي تعرف بقايا عاصمتها باسم تل الحريري قرب الحدود العراقية السورية.

أما منطقة سوخي السفلى فأن من أهم مدنها هي مدينة هيت، وفي تلك المرحلة الزمنية أطلق على المدينة تسمية أخرى بالإضافة إلى أسمها السومري توتول وهذه التسمية هي ايتو أو

أيدو ^{ki}i-ta-ia، ^{ki}i-da، ^{al}Etu، وهي تقرب في لفظها من اللفظة الحالية هيت(٢٤). من أهم النصوص التي ورد فيها ذكر مدينة هيت تلك التي كتبت في مقدمة قانون حمورابي الشهير (١٩٧٢- ١٧٥٠ ق.م) مع ما ذكره مع عدد من المدن التي أولاها عنايته الخاصة بعد أن ضمها إلى مملكته أثر الحملة التي شنها على مملكة ماري وانتهت بضم مناطق أعالي الفرات إلى سلطانه، وفي ذلك يصف حمورابي نفسه بقوله ((المسيطر على المدن على نهر الفرات بوحي من خالقه الاله داكان، الذي أظهر فضله على شعب ماري وهيت))(٢٥).

ومن المدن المهمة الأخرى مدينة ورد إسمها في المصادر المسمارية بصيغة يابليا، وقد قدرت بعض الدراسات الأثارية إلى أن يابليا كانت تمتد عند موضع مدينة حديثة الحالية(٢٦). ويستشف من تلك النصوص أن يابليا كانت عاصمة بلاد سوخي السفلى وأن حاكم المدينة كان يسكن فيها، وكانت لها سلطه مدنية وعسكرية تشرف على إدارة المدينة. شيد في المدينة معبد كبير لعبادة إله يحمل اسم المدينة. كما يستشف من تلك النصوص ان المدينة كانت من المحطات الرئيسة على الطريق التجاري الواصل بين بلاد بابل ومنه إلى رابيقوم (قرب الفلوجة) ثم يصل إلى هيت (اتيو) ومنها إلى مدينة ماري (تل الحريري) في أعالي الفرات(٢٧).

ومن النصوص المسمارية المكتشفة حديثاً نص يؤرخ السنة الثانية من حكم الملك ايبق أدد الثاني (حكم بحدود ١٨٥٠ ق.م) ملك بلاد اشنونا (شرقي العراق) والذي مدّ نفوذه صوب مناطق حوض نهر ديالى وجنوب بلاد آشور وحوض نهر الفرات، وقد جاء في هذا النص ((السنة التي خرب فيها إيبق ادد خندق مدينة يابليا))(٢٨).

وهذا يعني أن مدينة يابليا (حديثة) كانت من المنعة والقوة والاهمية بمكان مما حدا بهذا الملك لأن يؤرخ أحدى سنوات حكمه بفرض سيطرته عليها. كما يستشف من النص أن للمدينة خندق كبير يحيط بها ويحميها من عوادي الزمن إلا أن المدينة عجزت عن الصمود أمام هجوم

هذا الملك، هذا وقد خضعت المدينة بعد ذلك لسيطرة الملك حمورابي بعد هجومه الكاسح على مناطق أعالي الفرات وضم مملكة ماري تحت سلطانه وذلك بحدود عام ١٧٥٩ ق.م[٢٩].

أما منطقة سوخو العليا فان من أهم مدنها هي عاصمتها عند موضع مدينة عنة الحالية والتي كانت تعرف في النصوص المسمارية بإسم أنات Anat، وهي تسمية ترجع بأصلها على الاغلب إلى الآلهة أنات Anat، أو خانات الهة الحرب التي توصف بالملكة القويه والتي شاعت عبادتها في مناطق واسعة من أعالي الفرات وصولاً إلى بلاد الشام ومصر منذ الألف الثاني ق.م. وفي العاصمة عنه (أنات) يوجد مقر الحاكم وقصره والمعابد الرئيسية. وقد احتفظت المدينة بهيمنتها السياسية والحضارية وصولاً إلى العصر الاشوري الحديث حيث تردد ذكرها مراراً في كتابات الملوك الاشوريين أثناء حملاتهم على مدن أعالي الفرات وبلاد الشام[٣٠].

ومن المدن المهمة الأخرى في بلاد سوخو العليا من العصر البابلي بالقديم مدينة خريدوم او خرادم التي تعرف بقاياها حالياً بإسم خربه الدينية، حيث كشفت أعمال التنقيبات فيها على مخطط منتظم فريد من نوعه لمدينة بابليه يحيط بها سور منيع وتتخللها شوارع مستقيمة تخترق المدينة طولاً وعرضاً ويتوسطها معبد واسع بمخطط شائع في العصر البابلي القديم[٣١]. هذا وقد أصبحت سائر مدن أعالي الفرات خاضعة لحكم الملك حمورابي الذي وحد البلاد تحت سيطرته .

وفي أواسط العصر البابلي القديم وبعد وفاة الملك حمورابي نزحت إلى مناطق أعالي الفرات عند مدينة عانة وما يجاورها جموع بشرية كبيرة من أقوام غرباء عن المنطقة وعن بلاد الرافدين بشكل عام عرفوا في المصادر المسمارية اللاحقة باسم الاقوام الكشية. استوطن هؤلاء الاقوام بادئ الأمر المناطق الوسطى لجبال زاكروس بين العراق وإيران قرب أقليم لورستان وهم من أصل غير معروف وكان لهم علاقة غير واضحة مع الأقوام الهندو- أوربية. ثم نزحت هذه الاقوام لتستوطن مناطق شمال شرقي العراق شرقي نهر دجلة، وكانوا من القوة بحيث شكلوا تهديداً للملكة البابلية مما حدا بالملك سمسوايلونا ابن الملك حمورابي الذي حكم بحدود (١٧٤٩ – ١٧١٢ ق.م)

إلى أن يشن عليهم هجوماً كبيراً أرخ به سنة حكمه التاسعة[٣٢]. إلا أن ذلك الهجوم لم يكن حاسماً ولم يقض على جموعهم. ويبدو أن الكاشيين قد تعرضوا إلى ضغوطات كثيرة من ملوك بابل ومن الاقوام التي كانت تستوطن بالقرب منهم مما حدا بقسم كبير منهم إلى ترك موطنهم شمال شرقي العراق والنزوح والهجرة إلى مناطق غربي العراق في أعالي الفرات حيث تمكنوا هناك من تكوين كيان سياسي وعسكري في المنطقة استطاع من السيطرة على معظم مناطق أعالي الفرات. ويبدو من بعض النصوص المسمارية أن الكشيين تمكنوا من تأسيس مملكة مستقلة غربي العراق حكم فيها سبعة من الملوك قبل أن يتجهوا صوب بابل، كان من أولهم الملك كنداش المعاصر للملك سمسوايلونا ابن الملك حمورابي[٣٣].

ويبدو من مجريات الاحداث أن الكشيين قد استقلوا بحكم مناطق غربي العراق على طول مجرى نهر الفرات واتخذوا من مدينة عنة عاصمة لهم، وعلى أغلب الظن فقد تحالف هؤلاء الاقوام (الكشية) مع ملوك الحثيين الذين كانوا يستوطنوا ويحكمون مناطق جنوب الأناضول وشمالي بلاد الشام واتفقوا مع ملكهم مورشيلش ١٦٢٠-١٥٩٠ ق.م على تقديم يد العون له ومساعدته في غزو مدينة بابل واسقاط السلالة الحاكمة فيها[٣٤]. وفعلاً قام الملك الحثي مورشيليش بهجوم كاسح على العاصمة بابل وقد سلك في طريقه من أعالي بلاد الشام جانب الفرات ماراً عبر مناطق تواجد الكشيين غربي العراق، ووصل إلى العاصمة بابل حيث قضى على جيشها وقتل آخر ملوكها سمسوديتانا (١٦٤٠-١٥٩٥ ق.م). إلا أن الحثيين لم يبقوا في بابل إلا مدة قصيرة من الزمن حيث رجعوا إلى بلادهم بعد أن دمروا وسلبوا المدينة واخذوا غنائم كثيرة منها. ثم أنهم احتفظوا بتمثال كبير آلهة بابل مردوخ وزوجته صربانيتم في مدينة عنة مع كثير من الغنائم الأخرى ولم ينقلوها إلى عاصمتهم[٣٥].

وقد استغل الكشيون حالة الفراغ السياسي والعسكري الذي خلفه الهجوم الحيثي وسقوط العاصمة بابل، فقاموا بالنزوح من مناطق غرب العراق والنزول بمحاذات نهر الفرات نحو العاصمة بابل، حيث أقاموا فيها وأسسوا سلالة حاكمة جديدة في المنطقة عرفت بإسم المملكة الكشية وسمي

عصرهم باسم العصر البابلي الوسيط أو العصر الكشي، الذي امتد أربعة قرون تقريباً ١٥٩٥-١١٦٢ ق.م. ونصب الملك أكوم الثاني الملقب بإسم أكوم كاكريمه نفسه ملكاً على البلاد عام ١٥٩٥ ق.م، وكان من جملة أعماله إرجاع تماثيل الهة بابل الموجودة في مدينة عنة مع غيرها من الغنائم والنصب الدينية ووضعها في معابدها واحتفل بتلك المناسبة احتفالاً رسمياً دينياً مما اكسبه ود وتعاطف سكان بابل.

أما مناطق غربي العراق وأعالي الفرات فقد ضمت إلى المملكة الكشية الجديدة وأصبحت واحدة من أقاليمها المهمة كونها موطنهم الذي ضمهم أول الأمر وعنده تشكلت مملكتهم الأولى، هذا بالإضافة إلى ان مناطق غربي العراق وطريق نهر الفرات أضحى طريقاً حيوياً لبلاد بابل يوصلها مع حلفائها في بلاد الشام وجنوبي الاناضول ومن خلاله كانت بلاد الرافدين تتزود بكل ما تحتاج إليه من أخشاب وأحجار ومنسوجات ومعادن ومنتجات غذائية متنوعة كانت تزخر بها بلاد الشام وتفتقر إليها بلاد الرافدين.

ومن الجدير بالذكر فأن الكشيين هؤلاء لم يدخلوا إلى بلاد الرافدين مظاهر حضارية جديدة إلا في النادر حيث امتزجوا مع سكان البلاد بشكل تام حتى أنهم تخلوا عن لغتهم الاصلية وتبنوا اللغة البابلية والكتابة المسمارية، وكان من مظاهر ذلك الاندماج اقتباس الكشيين لعادات وتقاليد سكان البلاد وطرق معيشتهم اليومية[٣٦]، لذلك لم تطرأ تغيرات تذكر في المظاهر الحضارية لعموم بلاد الرافدين ومنها مناطق غرب العراق وأعالي الفرات.

وقد أظهرت التنقيبات الاثرية طبقات سكنية ترجع بزمنها إلى العصر الكشي والعصر الأشوري الوسيط تشير إلى وجود سكن مكثف في منطقة أعالي الفرات ومنها مناطق النكاشي والجودفيه على سبيل المثال[٣٧].

لقد أصبحت مناطق أعالي الفرات في هذه الفترة والفترات اللاحقة من الألف الأول ق.م من المناطق الحيوية المهمة بسبب كثافة السكن فيها من قبائل السوخو وتنامي قوتهم ونفوذهم وأصبح

نهر الفرات حداً طبيعياً بين بلاد آشور شمالي العراق وبين ممالك بلاد الشام والبادية الغربية غرباً. كما استغل مجرى النهر والطريق المحاذي له لسير الحملات العسكرية والقوافل التجارية الذاهبة والقادمة من تخوم بلاد الشام والبحر المتوسط(٣٨).

ويبدو من النصوص المسمارية أن مدن أعالي الفرات وبخاصة مدينة عنه عاصمة هذا الأقليم والمدن القريبة منها كانت محطات للقوافل التجارية القادمة من مدن الجزيرة العربية وأن لها علاقات تجارية مهمة مع مدن مثل تيماء ومدينة سبأ في جنوب غرب الجزيرة العربية وقد عثر في خربه الدينية (خرادوم) على أناء مدون عليه كتابات عربية قديمة تشير إلى صلات المنطقة بالجزيرة العربية(٣٩).

وفي تلك الحقبة أو قُبيلها سيطر البابليون كما ذكرنا على الجانب الغربي من نهر الفرات وصولاً إلى مدينة حديثة أو ربما شمالها قليلاً مما شكل خطراً حقيقياً على بلاد أشور لإمكانية تنفيذ هجوم منها باتجاه العواصم الآشورية مباشرة لذلك وجه حكام بلاد آشور كثيراً من حملاتهم العسكرية لاخضاع مدن أعالي الفرات وسكانها من السوخيين ونقرأ في حوليات ملوك بلاد أشور ومنهم توكلتي ننورتا الأول ٨٩٠-٨٨٤ ق.م واشورنا ناصربال الثاني ٨٨٣-٨٥٩ ق.م الشيء الكثير من حملاتهم الحربية لاخضاع المنطقة وفرض الهيمنة الآشورية عليها .

أما توكلتي ننورتا الأول فقد وصف حملته على أعالي الفرات بشيء من التفصيل وفيها يذكر أنه عسكر عند الضفة الشرقية لنهر الفرات قرب منابع القير في هيت (idu) وعندما وقف قرب منابع القير تلك أخذته الدهشة والحيرة من الاصوات الصادرة منها واعتقد أن الالهة كانت تسكن في باطنها ووصفها بقوله ((تلك التي يتكلم منها الالهة))(٤٠). كما يرد في تلك النصوص أن ملوك آشور سلبوا غنائم ثمينة وفرضوا جزية باهضة على بلاد سوخو لكثرة خيراتها وثرواتها الطبيعية ومنتجاتها الغذائية وسعة تعاملاتها التجارية ، وقد شملت تلك الضرائب كما يرد في النصوص المسمارية كميات من الذهب والفضة والعاج والمنسوجات الكتانية والصوفية

والمصوغات والقير وحيوانات مثل الجياد والثيران والأغنام وحتى الفيلة، حيث يذكر آشورناصربال الثاني أنه استلم جزية من بلاد سوخو منها خمسة فيلة على قيد الحياة(٤١).

ومن أجل أحكام السيطرة على مناطق أعالي الفرات وتنظيم وحماية طرق المواصلات البرية والنهرية فيه فقد اقام الاشوريون المدن والحصون والقلاع على جانبي النهر وقد أبانت نتائج التنقيبات في المنطقة عن الكثير من تلك المقرات المستحكمة ومنها النكاشي والجودفيه والسواري التي كانت تدعى على الأغلب (سبرتي) وكليعة وسور جرعه (جاياريدو) والزاوية ومهرة والفحيمي واليمنية (خديانوا) وجزيرة بيجان (سابيروتو) والعوسية وكفرين وتلبيس (تلميش في العصر الاشوري) وسورتلبيس (سورو) وعنة (انات) وخربة الدينية (خرادوم) والجابرية أو الكرابلة (خندانوا)(٤٢).

أما بعد سقوط مملكة آشور فقد اصبحت مدن أعالي الفرات تحت سيطرة المملكة البابلية الحديثة وملكها الشهير نبوخذنصر الثاني، الذي يذكر عنه أنه جلب القير من مدينة هيت (ايتو) واستخدمه في بناء العمائر الشامخة في العاصمة بابل(٤٣). ويبدو أن أقليم أعالي الفرات بقي على أهميته حتى بعد سقوط الدولة البابلية الحديثة ووقوع البلاد تحت السيطرة الاجنبية حيث ظلت المنطقة الشريان الحيوي لبلاد الرافدين واستمرت تتحكم بالطرق التجارية البرية والنهرية بين الدولتين الفرثية والساسانية في العراق والدولة الرومانية في بلاد الشام وانتشرت المحطات التجارية الفرثية على جانبي النهر وكانت مدينة الأنبار وهيت وآلوس وحديثة وعنة من المدن المهمة في تلك الحقبة الزمنية، وقد أطلق على مدينة هيت تسمية دي قيرا أي ذات القير(٤٤).

أما هيرودوتس الذي عاش في القرن الخامس ق.م. فقد كتب في تاريخه، أن مدينة هيت التي كتب اسمها بهيئة is أو هيص كانت مصدراً مهما للقير من النوعية الجيدة وقد وصلته الاخبار أن نبوخذنصر عندما جدد مدينة بابل استخدم قير مدينة هيت في بناء قصورها

ومعابدها[٤٥]. كما كشف مقابل جزيرة آلوس عند مرقد علي الفارس قلعة فرثية كبيرة كانت تشرف وتسيطر على المنطقة المحيطة بها[٤٦].

وفي زمن الامبراطور الروماني جوليان ٣٦٣ م، قام هذا الامبراطور بحملة على مناطق أعالي الفرات ووصف الطريق الذي سلكه في رحلته وصفاً دقيقاً يرد فيه اسماء الكثير من المواقع الكبيرة والمهمة على جانبي نهر الفرات، ومن تلك المواقع مدينة أخياخالا، ويعتقد الباحث الواموسيل أنها في موقع مدينة حديثة الحالية التي وصفت بأنها قلعة منيعة تقع على الضفة اليمنى من النهر يفصلها عن اليابسة قناة تأخذ مياهها من نهر الفرات. ولعل كلمة أخياخالا التي تعني المرتفع أو العالي اشتق منها اسم الموقع (العال) والذي يطلق على الجرف العالي الشديد الانحدار على الجانب المقابل للمدينة[٤٧]. ومن هناك ذهب الامبراطور الروماني جوليان إلى مدينة دياكير أودي قيرا ويعني بها مدينة هيت.

لقد ورد في كتب الرحالة الاغريق والرومان وصفاً دقيقاً لمناطق أعالي الفرات وذكر فيها أسماء الكثير من المواقع والمدن المهمة، لا أنها كتبت في صيغتها الاغريقية مما يجعل أمر تتبعها ومقارنتها مع الاسماء الحالية أمراً صعباً.

لقد تشكلت في المنطقة بعد نهاية العصر البابلي الحديث ووقوع البلاد تحت الحكم الاجنبي حضارة وممالك جديدة، كان قسم كبير منها ممالك أجنبية غريبة عن المنطقة. لذا فأن التعرف على تاريخ الاستيطان آنذاك يحتاج إلى دراسات آخرى، تأخذ بنظر الأعتبار المتغيرات السياسية، والبشرية لمنطقة الشرق الأوسط بأجمعها، ومهما يكن من أمر، فأن تتابع ذكر مدن أعالي الفرات في تلك العصور يشير بما لا يقبل الشك إلى احتفاظ منطقة غربي العراق وامتدادات نهر الفرات بشكل خاص، احتفاظها بأهميتها ومكانتها السياسية والحضارية، حتى بعد أن تبدلت الخارطة السياسية للمنطقة برمتها.

هوامش البحث

(١) حول الطبيعة الجغرافية للمنطقة ينظر:

Abdul-Amir, S.J. Archaeological Survey of Ancient Settlements and Irrigation Systems in the Middle Euphrates Region of Mesopotamia, Unp. Ph-D. Dissertation U.S.A. 1988

شريف، إبراهيم، الموقع الجغرافي للعراق وأثره في تاريخه العام حتى الفتح الإسلامي، بغداد (بدون تاريخ) ص ١٢٦ – ١٣٤.

(2) Bader, N. and Merpert, N. ((The Investigations of Soviet Expedition in Iraq)) Sumer, Vol.32, 1976, P.59.

(3) Bader, N. and Merpert, N. ((Soviet Investigations in the Singar Plain)) Sumer, vol.34, 1978, P.49

(٤) حول استيطان منطقة غربي العراق وأهم مواقعه ينظر:

الاعظمي، محمد طه ((العمارة في بدايات العصر الحجري الحديث في العراق)) المجلة القطرية للتاريخ والاثار، كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ١، ٢٠٠١م.

(٥) رميض، صلاح سلمان ((النتائج الأولية لتنقيبات تل جوخة في الفلوجة)) مجلة سومر، مجلد ٣٧، ١٩٨١، ص١١٢.

(6) Wooton, J. ((A Sumerian Statue from Tell Aswad)) Sumer, vol 21, 1965, P.117

(7) Pritchard, J. (edi), Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, 3rd .ed. U.S.A. 1969. P.268

(٨) فوزي رشيد، ((دراسة أولية لتمثال باسطكي)) سومر مجلد ٣٢، ١٩٧٦، ص ٥٤.

(٩) اغا، عبدالله أمين ((موقع العوسية)) سومر مجلد ٤٥، ١٩٨٨م، ص١١٠.

(١٠) الراوي، ناظر عبدالله ((أمثلة من العمارة في أثار حوض سد القادسية)) سومر مجلد ٤٢، ١٩٨٦، ص١٣
الشكري، صباح جاسم ((مشروع انقاذ آثار حوض سد القادسية)) سومر مجلد ٤٢ ، ١٩٨٦ ، ص١١ .

(11) Oppenhim,L. (edi) The Assyrian Dictionary of The Oriental Institute of The University of Chicago, (CAD) U.S.A vol. N2 P.134

(12) Black, J. (edi) A Concise Dictionary of Akkadian, Wiesbaden, 2000, P.230.

(13)Ibid. P.242, CAD vol. N.1. P.376

(١٤) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة نعر

(15) CAD, vol S, P.259

(16) Ibid. P.210

(١٧) الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، مادة سكر.

(١٨) حول أهمية فائض الانتاج الزراعي في تطور الحضارات وتقدمها أنظر:

الاعظمي، محمد طه محمد الاسوار والتحصينات الدفاعية في العمارة العراقية القديمة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد – كلية الآداب، ١٩٩٢، ص٢١.

(19)Surenhagen, D. The Dry- Farming Belt, The Uruk Period and Subsequent Developments, U.S.A. 1995. P.15

(٢٠) حول القبائل الامورية ومناطق استيطانها وهجماتها إلى بلاد الرافدين انظر:

الاعظمي، محمد طه محمد، حمورابي ١٧٩٢ – ١٧٥٠ ق.م بغداد،١٩٩٠، ص١٦-٢٥

(٢١) حول قبائل السوخو وأصلهم.

الزيدي، كاظم عبدالله، بلاد سوخو في الكتابات المسمارية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد – كلية الآداب، ٢٠٠٦.

(٢٢) الاعظمي، محمد طه، المصدر السابق الذكر، ١٩٩٠، ص ٢٨، ٥٩

(٢٣) كبنسكي، كرستين ولي كونت، أوليفية ((قلعة على ضفاف نهر الفرات في المنطقة المتاخمة لحدود بابل واشور)) مجلة سومر مجلد ٤٥، ١٩٨٨م، ص ٢٩٥

(24) Bottero, J. ((Repertoire Analylique des Tomes I A V)) ARM, no. 15, Paris, 1954, P.126

Borger, R. Assyrisch – babylonische Zeichenliste, Germany, 1978, P.200

(25) Driver, G. and Miles, J. The Babylonian Laws, vol.2, Oxford, 1968, P.11

الاعظمي، محمد طه محمد ((مدينة هيت في المصادر المسمارية)) مدينة هيت في التاريخ، مركز إحياء التراث العلمي العربي، بغداد، ٢٠٠٠.

(٢٦) كبنسكي، كرستين ولي كونت، أوليفية، المصدر السابق الذكر، ص٢٩٧.

(٢٧) المصدر نفسه ص ٢٩٧.

(٢٨) محمد، أحمد كامل، رسائل غير منشورة من العهد البابلي القديم في المتحف العراقي، رسالة داكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٩٦، ص١٧

(٢٩) الاعظمي، محمد طه محمد، حمورابي، المصدر السابق الذكر، ص ٦٩ – ٨٠

(٣٠) الزيدي، كاظم عبدالله، المصدر السابق الذكر، ص ١١٧ – ١٣٠

(٣١) كبنسكي، كرستين ولي كونت، أوليفه، المصدر السابق الذكر، ص ٢٩٣ – ٢٩٧

(٣٢) ساكز، هاري، عظمة بابل ترجمة عامر سليمان، الموصل ١٩٧٩، ص ٩٢.

(٣٣) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، بغداد، ١٩٨٦، ص ٤٣٤ – ٤٤٩.

(٣٤) المصدر نفسه ص ٤٥٠

(٣٥) المصدر نفسه ص ٤٣٥ وكذلك.

ساكز، هاري، المصدر السابق الذكر ، ص ٩٠ – ٩١

(٣٦) بوستغيت، نيكولاس، حضارة العراق وآثاره ترجمة سمير عبدالرحيم الجلبي، بغداد، ١٩٩٢، ص ٩٠ – ٩١

اوتس، جون، بابل تاريخ مصور، ترجمة سمير عبدالرحيم الحلبي، بغداد، ١٩٩٠، ص ١٣٢

(٣٧) حول المواقع الكشية ، أنظر نتائج تنقيبات سد القادسية في مجلة سومر ، مجلد ٤٢ ، ١٩٨٦ .

(38) Young, C. ((The Asyyrian Army on the Middle Euphrates)) Bulietin the Society for Mesopotamian Studies, vol. 6, 1983. P.20-27

(٣٩) اسماعيل، بهيجة خليل، ((نصوص نينورنا – كودري – اوصر حاكم سوخي وماري)) مجلة سومر، مجلد ٤٢، ١٩٨٦، ص٨٨.

(40) Luckenbill, D. Ancient Records of Assyria and Babylonia, vol.1, U.S.A, 1975, PP.111, 129

(41) Ismail, B.and Roaf, M. ((Ana in the Cuneiform Soures)) Sumer vol. 39, 1983, P.191.

(٤٢) حول هذه المواقع انظر Abdul- Amir, S. Op.Cit.

(43) Meissner, B. Realexikon der Assyriologie Band 3, Berlin, 1976, P.33

وحول القير المستخدم في بابل ونتائج تحاليله انظر:

الاعظمي، خالد أحمد وصبيحة محمد ((ديمومة المواد القيرية ومجالات استعمالاتها في ابنية وادي الرافدين))، مجلة سومر، مجلد ٤٦، ١٩٨٩ – ١٩٩٠، ص٤٦

(٤٤) طه باقر وفؤاد سفر، المرشد إلى مواطن الاثار والحضارة، الرحلة الأولى، بغداد، ١٩٦٢، ص١٠

(45) Meissner, B. Op.Cit. P.33

(٤٦) رميض، صلاح سلمان، تقرير غير منشور عن نتائج تنقيبات سد البغدادي دائرة الاثار والتراث، بغداد، ١٩٩٠ – ١٩٩٢

(٤٧) الواموسيل، الفرات الأوسط، رحلة وصفية ودراسات تاريخية، ترجمة صدقي حمدي وعبدالمطلب عبد الرحمن، بغداد، ١٩٩٠، ص ٣٦٢.